سرداب التاجوري

قصص قصيرة

مريم خليل الضاني

سـرداب التاجـوري

قصص قصيرة

دار المفردات للنشر والتوزيع
الطبعة الأولى
الرياض
١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م

مريم خليل جميل الضاني، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الضاني، مريم خليل جميل

سرداب التاجوري / مريم خليل جميل الضاني

المدينة المنورة ،١٤٢٨هـ

٩٥ص ؛ ١٤ ×٢١سم

ردمك: ٧- ٥٨٥- ٥٨- ٩٩٦٠- ٩٧٨

١_ القصص القصيرة ـ السعودية ـ أ. العنوان.

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ١٤٢٨/٦٧٩٥

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٦٧٩٥

ردمك: ٧- ٥٨٥- ٥٨- ٩٩٦٠- ٩٧٨

©١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م الطبعة الأولي

دار المفردات للنشر والتوزيع ، الرياض ،

المملكة العربية السعودية

ص.ب :٧٠٣/ الرمز البريدي :١١٤٢١

هاتف : ٤٧٠٨٥٢٩- فاكس ٤٧٠٨٥٤٥

الموقع الإليكتروني: www.almufradat.com

البريد الإليكتروني: alahmadi@almufradat.com

حقوق الطبع محفوظة

* **تصميم الغلاف:** خنساء أبو ناجي

الإهـــداء

إلى قرة عيني ومهجة قلبي، الصدر الدافئ، نبع الحنـــان والعطـــاء، وملجئي الآمن: أمي الحبيبة، شفاها الله وأطال عمرها في طاعته .

إلى أحب إنسان إلى قلبي: الصرح الشامخ في نفسي والضوء القوي الساطع الذي يشع في روحي ويبدد ظلام الحزن واليأس، إلى الذي مـــازال حيا يسكنني: أبي رحمه الله وجمعني به في الفردوس الأعلى، وجـــزاه عـــني خيرما جزى أبا عن ابنته.

إلى الأغصان والورود التي تعرّش في قلـــبي وتحتـــضنه: شـــقيقاتي الغاليات .

إلى القلب الكبير الذي يفيض بالمحبة والخير:عمي(نادر).

إلى بلسم جراحي، والواحة التي أرتوي فيها من معين الود والإخاء: صديقاتي الحبيبات .

إلى النخلة السامقة، الإنسان النبيلة الفريدة، صـــديقتي وأســـتاذتي الأديبة القاصة القديرة التي غمرتني بفـــضلها و تـــشجيعها لي واهتمامهـــا بقلمي: وفاء الطيب التي يحلو لي أن أسميها (طِيب الوفاء).

إلى صديقة عمري (ندى علي الدهامي): بحر الوفاء في زمن عزّ فيه الوفاء.

إلى صديقتيّ الأديبتين الفاضلتين: القاصة العراقية القديرة صـــبيحة شبر، والكاتبة السعودية منيرة المبدّل.

إلى(منتدى أزاهير الأدبي) الذي لن أنسى فضله عليّ ما حييت.

إلى مدينتي التي أعشقها، إلى التي رضعتُ حبها وجرى في عروقـــي ماء عيونها، مدينة الأنصار والمهاجرين، مدينة الحبيب المصطفى محمد صـــلى الله عليه وسلم: طيبة الطيبة. إلى أزقتها وبيوتها القديمة،وهوائها العابق بالأمن والإيمان. إلى سمائها وترابها الطيب المـــضمخ بالـــذكريات، إلى أشـــجارها ونخيلها ووردها ونعناعها ودروبها وخبزها. إلى أناسها الطيبين البسطاء. إلى حمام الحرم السابح بين المآذن والقباب.

إلى وطني: فلسطين الحبيبة،وطن الكرامـــة والربـــاط والإبـــاء، إلى الأسرى والصابرين هناك.

إلى كل أحبتي أهدي قصصي هذه.

مريم الضاني

الفهرس

م	القصة	الصفحة
١-	أسبرين	٧
٢-	ثلاثة على طريق	١٢
٣-	طرب وحرب وبرتقال	١٨
٤-	مارد	٢٢
٥-	ضوء	٣٠
٦-	صديقتي التي	٣٤
٧-	سرداب التاجوري	٣٨
٨-	علاقة	٤٢
٩-	صباح الدم	٤٤
١٠-	خطوات ميتة	٥٠
١١-	مثل ما أحب أمي	٥٥
١٢-	عصفور على النافذ	٥٨
١٣-	أخرج ياسعيد	٦٣
١٤-	خارج المفكرة	٦٦
١٥-	صناديق البكاء	٧١
١٣-	على بابه	٧٦
١٤-	انتظار	٨١
١٥-	بائع الشراريب	٨٥

أسبرين

إنه يومي الأول من أيام التقاعد!. رائحة الثياب المغسولة المعلّقة على حبال الشرفة، أزيز المكنسة الكهربائية،رائحة(الملوخية) المنتشرة في أرجاء البيت، وانتظار عودة سالم والأولاد إلى البيت ظهرا؛ تفاصيل حميمة ذكرتني بسنوات الزواج الأولى.

ارتديت قميصا ورديا قصيرا وانطلقت بهمة ونشاط أنظف المترل وأترنم بأغنية أحبها كان سالم يغنيها لي، ومن حين لآخر أرى نفسي في مرايا البيت وأتأمل هيئتي الجديدة: جُل جسدي مكشوف، حتى صدري المترهل!.

توقفت هنيهة أمام المرآة وتمتمت ساخرة:

- (أبلة) سعاد المديرة ! لا أحد يراك الآن.. هيه .. ! أين التنورة السميكة والحذاء الأسود والشعر المشدود إلى الخلف على هيئة كعكة؟!أين الملامح الصارمة التي تخشاها الطالبات؟ أين طوابير الصباح المنتظمة الصامتة ؟ أين مدرستي ذات الطوابق الثلاثة والفصول والمقاعد والحصص والحكايات واليوميات

التي أتحكم في كل صغيرة وكبيرة فيها؟ أين مملكتي التي أفلت شمسها ! ؟ .

آه! هذه منشفة قديمة تصلح لإزالة الغبار. سأبدأ بتنظيف أرفف المكتبة. على رفها السفلي استوقفتني صورة قديمة لحفل زفافي، كان سالم يطوقني بذراعيه القويتين فيما كنت أتشبث برسغه وعلى شفتيّ ظل ابتسامة بكر. قلّبت الإطار بين يديّ . كان الغبار مترسبا بين زخارف الإطار ونقوشه البارزة، بل إن الغبار تسلل عبر زجاج الصورة المشروخ وغطى جزءا كبيرا منها. سيتطلب تنظيف وإصلاح الإطار وقتا طويلا.

قاومت حزنا مبهما باغتني وأعدت الصورة إلى مكانها.ألم تكن هذه الصورة ملقاة بين الخردوات في المستودع؟ لعل الخادمة أخرجتها من هناك قبل أن تسافر.كيف لم اتنبه إلى هذه الصورة من قبل؟!.

بعدما انتهيت من تنظيف المترل، ارتديت فستانا أحمر اللون موشى بفصوص فضية. طليت وجهي ببعض المساحيق، وثبتّ وردة مجففة حمراء بين خصلات شعري.

أزيز سيارة سالم شحنني بالحماس فنثرت على عنقي قطرات من عطر العود الذي يحبه، وحثثت الخطى صوب النافذة. تأملته وهو يترجل من السيارة. كان مستغرقا في حديث هاتفي حميم. لابد أنه يتحدث إليها، ولا ريب أنها أهّت المحادثة بدعابة كعادتها. أغلق الهاتف ونظر إليه بودّ ثم وضعه في جيبه وربت عليه.

أسدلتُ الستارة على النافذة واكتنفني إحساس ثقيل بالضيق. اتكأت بظهري على الجدار وتنهدت بحرقة:آآآآه... (سحر)، طالبتي الحسناء ذات الجسد البض والبشرة البيضاء الناعمة والأنامل الرقيقة .

سحر، الورم المتجذر في طيات نفسي، ما فتئ ينمو ويتناسل، وما فتئت أراقبه فيتبدى لي بثرة صغيرة. داهمني صداع مفاجئ وبرودة في أطرافي .

ولكن ما الجديد في الأم ؟ ! سحر كانت وما زالت زوجته الثانية. تلك البئر المطمورة!، ما خلت أنني ذات يوم سأنزع غطاءها وأنزل دلوي إلى أعماقها السحيقة، لأخرجها مترعة بالوجع. تهربت من رغبة ملحة في البكاء ومشيت متثاقلة إلى المطبخ .

دلف سالم إلى البيت وما أن وقعت عيناه عليّ حتى تلفّت حوله متسائلا :

- أين الأولاد؟.

- ذهبوا مع أصدقائهم إلى البر.

- تبدين شاحبة ! .

- .....

- مريضة؟

- لا .

أخرج هاتفه من جيبه ووضعه على طاولة الطعام. بدأ هاتفه يرن بشكل متواصل فنظر إليه باهتمام ثم أبعده عنه ببطء . لاحظتُ ارتباكه فعلقتُ بخبث:

- هاتفك .. ألا تسمعه؟!

- بلى، ولكنني جائع ولا أود التحدث إلى أحد.

أغلق الهاتف وعلت وجهه مسحة من الوجوم فازداد إحساسي بالضيق وقلت منفعلة:

- لقد اعتادت أن تهاتفك عندما تكونَ عندي، على الرغم من أنني لا أهاتفك قط حين تكون في بيتـــها، تجنبـــا لإحراجـــك وإزعاجها.

بدت على محياه علامات التعجب من تعليقي، وساد بيننـــا صمت ثقيل لا يخدشه إلا صوت اصطدام ملاعقنـــا بالـــصحون. توقف بغتة عن تناول الغداء و صوّب نحوي عينيه فيما نمت علـــى شفتيه ابتسامة حانية حين سألني:

- اشتقت إلى المدرسة ؟ .

ثلاث على طريق

التلميذات الصغيرات يتدافعن للانصراف من بوابة المدرسة. يثرثرن ويضحكن ويلوحن لي بأيديهن قائلات:

- مع السلامة يا أبلة ياعسّولة... مع السلامة يا عيوني.

قبلتهنّ من مسافة قريبة منهنّ ولوّحت لهنّ بيديّ مودعة، ثم سرت مبتعدة عن المدرسة فخفتت أصواتهنّ شيئا فشيئا. تتحسس عيناي البيوت القديمة الطينية المبعثرة حول المدرسة، والدروب الضيقة الوعرة التي مهدت فيها أقدام المشاة ممرات ترابية حفظتها قدماي.

جلت ببصري في السماء المكفهرة الملبدة بالغيوم. الغبار يصبغ البيوت والطرقات بلون أصفر شاحب. لعلها ستمطر!. هب ريح حارة تذرو التراب عليّ فيدخل إلى فمي وعينيّ.

أكاد أسمع زفيف الرياح عبر شقوق سقف حجرتي التي تنتظرني فوق السطح. لعل الغبار الآن يغطي سريري وأرفف الكتب. هدأت الريح إلا أن الغبار مازال عالقا في الهواء .

أشعر باختناق وأنا أنصت إلى وقع قدميّ الرتيب ووجيب قلبي و تهدج أنفاسي.لماذا أنا حزينة اليوم ؟ ! .

أُلهّي نفسي بالإصغاء إلى الأصوات المتداخلة المنبعثة من البيوت التي أسير بمحاذاتها. أعانق بعينيّ نوافذها فتنتابني رغبة قوية في البكاء.

كم أحب النوافذ!. توقفت أمام نافذة يبدو من ورائها رجل يجلس متكئا تحت ظل عريشة في ردهة البيت، يحرك مروحة من القش أمام وجهه، مستمتعا بدفقات هوائها البارد وينادي:

- هيّا،أسرعي، أحضري الشاي .

تدخل امرأة تحمل إبريق الشاي وبعض الكعك وتجلس بجانبه قائلة:

- قم، لندخل إلى حجرتنا أظن أنها ستمطر.

رفعا رأسيهما فرأياني فابتعدت.

انفرج باب بقوة واندفع منه طفل في الثالثة من العمر يركض مسرورا بحريته، ومالبثت أمه أن انطلقت على أثره وسحبته

الى البيت باكيا. تنتشر في الهواء رائحة صابون ونعناع وعطر رجالي وكعك شهي. كان (عاصم) يحب الكعك بالتمر! .

تناءيت عن البيوت سالكة الطريق المؤدية الى الشارع العام. الطريق ساكنة موحشة، تلفتّ حولي، لا أحد هنا سوى فتاتين تسيران على مقربة مني، ترتدي كل منهما ثوبا أزرقا ووشاحا أبيضا ذا حواف مطرزة بخيوط مهترئة، وخرز تساقط جلّه، وتنتعل حذاءا من النايلون الشفاف يبدي قدمين بيضاوين وأصابع دقيقة ما تزال أظافرها تحتفظ ببقايا طلاء أحمر. تحمل كل منهما على إحدى كتفيها كيسا أسود سميكا، يدل انحناء ظهرها على ثقله، وتمسك بيدها كيسا آخر شفيفا يحوي بساطا مقلما.

تسبق إحداهما الأخرى بذراعين إلا أنهما تسيران صامتتين ولا تلتفتان إلى بعضهما. دفعتني تجاههما موجة من الفضول لأعرف محتويات الكيسين الأسودين، إلا أن الصغيرتين أحستا بدنويّ الشديد منهما فأجفلتا وركضتا مبتعدتين عنّي حتى وصلتا إلى منحنى بعيد، فتوقفتا هناك وهما تلهثان وتسعلان. حدقتا فيّ بعيون مزمومة فيها كثير من الضيق والنفور، ثم سارتا بتؤدة عبر طريق جانبي واختفتا بين البيوت. لابد أنهما في السابعة من العمر .

يتنامى في نفسي شعور حارق بالكآبة. لوأن لي ابنة تنتظرني في حجرتي!.

الريح تهب تارة أخرى، وتذرو التراب على البيوت والدروب والأشجار القليلة الجافة. تصطفق بعض الأبواب وضلف النوافذ المشرعة فتمتد أذرع لتغلقها. يسقط برميل فارغ ولوح من الصفيح من سطح منزل، فيتدحرج البرميل على الطريق.

أشعر بعطش شديد. تهب من حاوية قمامة رائحة نفاذة، كأنها رائحة (بنج). انتشرت الرائحة في عروقي ووجدتُ طعمها على لساني.

آه ! ماتزال لك الأيام تجوس كالخفافيش في سراديبي غرفة الإفاقة من العملية وأمواج من الألم المبرح تتدفق من بطني و تكتسح جسمي، التريف الغزير والبرودة الشديدة التي تكفنني، طعم البنج ورغبة قوية في التقيؤ. كانت الرؤى ضبابية لكنني موقنة أن عاصم كان واقفا عند رأسي، وجهه مظلم كقطعة من الليل، يقلب بين يديه الجنين ذا الأربعة أشهر متحسرا، ويردد حزينا حانقا:

– والله سأتزوج ! .

أين اختفت الصغيرتان ؟

من أي البيوت خرجتا ؟

لماذا تسيران بمفردهما ؟

ما الذي تحملانه في الأكياس السوداء ؟

إلى أين ستذهبان ؟

أف ! لم أفكر بهما ! ؟

اشتدت ضراوة الريح فانتحيت جانب الطريق احتمي بصندقة مهجورة، لكنني فوجئت بالصغيرتين تجلسان داخل الصندقة وتخرجان قارورتي ماء من الكيس الأسود وتشربان. عندما انتبهتا إليّ، صرخَت إحداهما فزعةً ، فخرجتُ من الصندقة وأنا أبكي .

الزوابع تحمل بقايا الصناديق والأغصان الميتة وتضرب بها البيوت وأنا عطشى، والبكاء يزيد عطشي. توقفت عن السير إلى أن سكنت الريح، عندئذ تمكنت من رؤية حجرتي على سطح البناية التي تطل على الشارع الرئيسي. حثثت الخطى حتى وصلت الى الرصيف. انتظرت توقف السيارات لكي اجتاز الشارع، إلا أنني أبصرت الفتاتين على الرصيف المقابل، تفترشان البساطين وتخرجان

من الكيسين الأسودين قوارير ماء، وتلوّحان بها للمارة صـــائحتين بصوت مبحوح:

– ماء بارد ، ماء بارد ، ماء بارد .

طرب وحرب وبرتقال

أوقف سيارته أمام السوبر ماركت الذي يبيع نوع سجائره المفضل ثم ترجل من السيارة، المكان مكتظ بالناس . ثمة ضجيج وأغاني متنوعة تنبعث من هواتف المتسوقين. شرع يتسكع في الممرات و يحاول أن يتتبع كلمات أغنية ما يعرفها ويتذكر بقية الأغنية، لكن تلك الأغنية ما تلبث أن تنقطع فيصغي إلى أغنية أخرى .أرهف السمع إلى مغنٍ يغني باللهجة العراقية :

- يا البرتقالة .....يا البرتقالة .

التفت نحو الصوت الذي بدا قريبا منه جدا، تأمّل الحسناء التي انبعثت تلك الأغنية من هاتفها، أخذ علبة السجائر وغادر المكان بتثاقل، ركب سيارته، أشعل سيجارة وأخذ نفسا عميقا، أدار مفتاح الراديو يبحث عن نشرة أخبار، علا صوت ذلك المغني وهو يردد:

- يا البرتقالة ... يا البرتقالة .

نفث دخان سيجارته منفعلا و طفق يبحث عن محطة أخرى. المذيع يقرأ نشرة الأخبار:

- انفجار جديد في سوق شعبي في بغداد. بلغت حصيلة القتلى ستين قتيلا وعشرات الجرحى.

كأن يدا تعتصر قلبه، بدأ إحساس بالضيق يتنامى في نفسه، عاد يعبث بمفتاح الراديو. كان صوت المذيع صافيا هادئا وهو يقدم محاضرة في إذاعة القرآن الكريم:

- الإمام أبو حنيفة: هو أحد أئمة المذاهب الأربعة، وهو إمام أهل الرأي في العراق. لم يطق أن يصغي إلى بقية المحاضرة. عاد يبحث بين المحطات عن شيء لا يعلم كنهه، إلا أن تلك الأغنية صفعت أذنيه تارة أخرى:

- يا البرتقالة ... يا البرتقالة .

أطفأ سيجارته وفكّ أزرار قميصه العلوية ثم فتح نافذة سيارته. انتابته رغبة جامحة في البكاء ولكن دموعه استعصت عليه، حاول أن يتذكر آخر مرة بكى فيها فلم يفلح.

لم يتبق أمامه سوى مسافة قصيرة تفصله عن بيته.

هناك مذيع يقرأ خبرا عاجلا :

- قبل قليل أغارت القوات الإسرائيلية على حي الزيتون في مدينة غزة، وقد سقط على إثر الغارة عديد من القتلى والجرحى.

ما تزال الغارة مستمرة حتى هذه اللحظة. هذا ما وصل إلينا حتى الآن، وسنوافيكم بالتفاصيل في النشرة القادمة إن شاء الله.

خرج من السيارة وهو في حالة من الـــذهول والانفعـــال الشديد، أخذ يهذي ويضرب رأسه بيديه:

- أمي وأبي!، غارة!، حي الزيتون! ... يا الله .. يا الله .... يارب استر ..يارب الطف بهم.

أحس أن أطرافه قطع من الثلج. قدماه الثقيلتـــان بالكـــاد أوصلتاه إلى باب بيته. طرق الباب فانفرج عن زوجته التي بـــدت متوترة وفي عجلة من أمرها، تهاوى على أقرب مقعد. كان أبناؤه الخمسة وزوجته متحلقين حول التلفاز، يتابعون بـــشغف شـــديد الحلقة الأخيرة من برنامج (سوبر ستار العرب). جاهـــد ليخـــرج صوته من صدره، هزّ يده بما تبقى من قوته وقال بصوت ضـــعيف متقطع:

- يا أولاد، انتبهوا إليّ، إصغوا إليّ، إسرائيل تقصف حي الزيتون في غزة الآن ! . أريد أن أشاهد نشرة الأخبار .

لم ينتبه إليه إلا ابنه الأصغر، إذ التفت صوبه قائلا باستعطاف:

– أرجوك يا أبي انتظر. لم يتبق سوى دقائق على اختيار سوبر ستار العرب.منذ أشهر ونحن ننتظر هذه اللحظة .

أخرج الأب هاتفه من جيبه، إلا أنه فوجئ بأن الهاتف ليس مشحونا، فقذفه باتجاه الحائط. صرخ في أبنائه وهو يضرب بيده بقوة على طاولة أمامه:

– ليعطني أحدكم هاتفه. أريد أن أطمئن على والديّ .

لم يصغ إليه أحد منهم. كانوا في تلك الأثناء يمسكون بهواتفهم ويرسلون رسائل لانتخاب نجمهم المفضل، في اللحظات الأخيرة التي يسمح فيها للمشاهدين بالتصويت لاختيار (سوبر ستار العرب).

ماما، متى ستأتي مها؟.

سألني وائل بلثغته الواضحة وهو يضع أذنـــه علـــى بطـــني ويرهف السمع. دفعه أنس بكفيه الصغيرتين ووضع أذنـــه علـــى الموضع نفسه ثم سألني:

- ماما، مها تحبني ؟.

ضممتهما إلى صدري وأجبتهما:

- مها تحب كليكما. بعد أيام قليلة ستخرج من بطني بـــإذن الله، وستكبر وتلعب معكما.

ركض الصغيران ليلعبا تحت ظل شجرة في حديقة البيت، في ما أخذت أتحسس بطني البارزة أمامي في استدارة محببة.

كان سامي جالسا بمحاذاتي يحتسي قهوته ويراقب طفليـــه، تتراقص على وجهه ابتسامات مشرقة، ومن حين لآخـــر يتـــسابق الصغيران للوصول إلى ذراعيه المشرعتين، وعنـــدما يـــصلان إليـــه يحتضنهما ويتدحرج معهما على العـــشب فيتنـــاغم ضـــحكهما وكلامهما مع قهقهته ولهاثه.

شرعتُ أتأمل وجه سامي الذي يشي بالألفة والحنو، فانتبه إليّ وهو ينفض التراب عن ثيابه ثم جلس إلى جانبي. ألصق فمه بأذني وهمس لي:

- من أسعد مني يا حياة ؟!.

ضمّ أصابعي بين كفيه وقبّلها. هممت بأن أضع رأسي على صدره فانتصب بيني وبينه ذاك الجدار السميك.

ها أنت يا خالد تتراءى لي من جديد تحت تلك الشجرة، وعيناك العسليتان المشبعتان بالانكسار لا تبرحان عينيّ. ضمني سامي إلى صدره وربت على شعري فاستسلمت لدفئه، وسرعان ما ابتعدتُ عنه حين دنوتَ مني وانهالت عليّ سياط وجودك. سحبتُ أصابعي من بين كفَي سامي حين حاذيتني. بدأ الخوف يدب في عروقي. وجهك تزداد مساحته بالتدريج حتى يغطي السماء. يدمدم صوتك في أعماقي رعدا لطالما أقسمتِ لي يا حياة أنك لن تكوني لرجل آخر سواي .

- لا تلمني على أمر ليس بيدي يا خالد . أنت تعلم جيدا أني أحب الأطفال بجنون .

ازدادت حدة الانكسار في عينيك حين خفضت رأسك قائلا: ـــ

- لو كنتُ مكانك لما تخليت عن أحب إنسان إليّ .

- ربما، ولكن ليس لأنك أشدّ وفاءا مني، بل لأنك رجل لـــديك خيارات أخرى إنّ بمقدورك أن تتزوج امرأة ثانية تحقق لك حلم الأبوة وفي الوقت ذاته تحتفظ بي، أما أنا فليس لـــدي أي خيار آخر، إمّا أنت وإمّا الإنجاب.

تناءيت عني وجلست على العشب متكئا بظهـــرك علـــى السور، تراقب ولديّ وهما يلعبان. نهضتُ من مقعـــدي ومـــشيتُ صوبك بخطى بطيئة، ثم جلستُ بمحاذاتك. تأملتني مليا ثم أشـــرت بسبابتك إلى وائل قائلا:

- وائل يشبهك تماما. عيناه جميلتان واسعتان مثل عينيك ولكنهما فاحمتا السواد مثل عيني أبيه.

تناولتَ عودا من الأرض وشرعتَ ترسم به على التـــراب دوائر متداخلة ثم أردفتَ :

- سميتهما وائل وأنس، اسمان من الأسماء التي كنت أنوي أن أسمي أبنائي بها، لو أن الله رزقني بأبناء .

- أنت لا تكف عن تأنيبي ! .

- .....

- والله إني أدعو الله لك في كل صلاة أن يرزقك بالذرية .

ابتسمتَ ابتسامة مشوبة بالأسى وقلتَ:

- أن يكون للمرء أبناء ، شيء يبعث على السعادة والرضى، أليس كذلك ؟

- أتذكُر يا خالد كم كنت أتحرق شوقا إلى أن يكـــون لي طفـــل يناديني يا ماما! ؟، وكم كنت أعشق رائحة أجساد الأطفال حديثي الولادة ومناغاتهم ، وأطرافهم الدقيقة وملابـــسهم القطنية الناعمة الملمس. أتذكُر يوم أن باغتني وأنا ألقم ثديي فم ابنة أختك الوليدة خفية؟.كنتُ آنذاك أتخيل أنها ابـــنتي وأهدهدها لتنام. أتدرك عمق حسرتي حين كنت أشـــتري الهدايا وأذهب لأبارك لصديقاتي اللاتي وضـــعن؟، وحـــين كانت النسوة يطلقن عليّ رصاص أسئلتهن الذي لا يفتر:

- ألم تحملي بعد ؟ ! .

قذفتَ بالعود بعيدا وقلت وأنت تنفض يديك من التراب:

- وها أنت ياحياة قد أصبحت أما وتحقق حلمك القديم، وبيتـــك الآن يضج بنداءات ولديك : ماما .. ماما .. ماما ، فهـــل وجدت السعادة التي كنت تنشدينها ؟ .

-كنت سأجدها لو أنك كففت عن ملاحقتي .

- أنا لا ألاحقك !.

تنهدتَ واختلج صوتك قائلاً:

- إن مشكلتي يا حياة هي أنك روحي.

نظرتَ إليّ بعينيك الدامعتين واستطردتَ:

-كيف يحيا المرء بلا روح؟ ! .

- ولكنك تعذبني .

- ألأنني مازلت أحبك؟ !، أنت أيضا يا حياة لم تخب جذوة حبك لي منذ افترقنا . أتنكرين أنك مازلت ترتدين الفستان الأزرق الساتان الذي أحضرته لك من سوريا، على الرغم من أن سامي لا يحب اللون الأزرق؟!، وتصرين على اقتناء العطر الذي أهديته إليك ذات مساء حالم، وتلك الحقيبة التي تحتفظين فيها ببعض ملابسي، ألا تلوذين بها في لحظات انهيارك كما تلوذ القوارب المنهكة بأرصفة الموانئ ؟ ! .

- خالد، أتمنى أن أعيش يوما واحدا بدونك، و أن أستيقظ في الصباح وأرتب سريري دون أن أشم رائحة جسمك في لحافي ووسادتي، ودون أن استنشق أنفاسك التي يعج بها

بيتي. أتمنى أن لا أرى ملابسك وأحذيتك ونظارتك وأشياءك متناثرة حولي .

في بعض الأوقات أهرب منك وأختبئ في حجرة أولادي، وفي أحيان أخر أخلو بنفسي وأغلق الأبواب وأحتسي قهوتي، فأراك في البخار المتصاعد منها، أراك عند بوابة المحكمة يوم الخُلع . قلت لي آنذاك:

– والله لن أسامحك ما حييت .

كانت شفتاك ترتجفان بشدة وانفلتت من عينيك دمعة كبيرة، وأنت تحث الخطى منصرفا نحو سيارتك. في تلك اللحظة فقط يا خالد أدركتُ هول ما اقترفتُ . عارية كنت أقف تحت شلالات الذهول الثلجية.

– إلى متى سنظل على هذا الحال ؟

– أنا أيضا متعب بدونك .

– من الجنون أن نستسلم لهذه الحبال الروحية التي تربطنا. كلانا متزوج. قدرنا أن نفترق، فلم يصرّ كل منا على أن يحيا حياتين في آن واحد ؟.

–.....

- أتحب زوجتك ؟.

- من الغباء أن يهب المرء قلبه لمن يغدر به عندما يتعارض الحب مع المصالح الشخصية.

- أي أنك لا تحبها.

- لا يهم . المهم أن أحيا بسلام. هي أيضا لا تنجب. لا أحد منا يهدد الآخر أو يطالبه بما لا يملك .

- ما الحل يا خالد؟ .

- ماذا تريدينني أن أفعل ؟ .

- ارحل .

- سأرحل عندما تجتثين جذوري من قلبك .

- هب أنني ضعيفة أمامك ، ألا ترأف بي وترحل؟.

- هل هو قرارك الأخير ؟.

- .....

- .....

التفتُ إليك فلم أرك .

نهضتُ بمشقة وعدت إلى مقعدي بجانب سامي الذي استقبلني بنظرات قلقة حانية. ضمني إلى صدره قائلا:

- تبدين شديدة الإعياء!. هوني عليك، بعد أيام قلائل ستـــضعين حملك بالسلامة .

التصقتُ به بقوة وتنفستُ بعمق فتفتحت في نفسي بـــراعم الطمأنينة. همستُ له :

- سامي خبئني بين ضلوعك هناك بعيدا.... بعيدا عن هذا العالم.

ألصقتُ رأسي بصدره وأصغيتُ إلى نبضات قلبه، لكن ثمة صوت مبهم يمتزج بالنبض، صوت بعيد خفيض كأنه قادم من قاع بئر. الصوت يعلو بالتدريج ويستحيل نداءا ملحا. رفعتُ رأســـي فرأيتك جالسا على حافة السور!.

ضـــــوء

ترمي بسهام لحظها عبر الشاشة، و تذوب رقـــة وعذوبـــة وهي تقرأ نشرة أخبار المساء .

الليل أرخى سدوله والهواء الثقيل يزحـــف عـــبر النافـــذة المشرعة. وقف على النافذة يتأمل الشارع الذي يمتد إسفلتيا أسودا كآهة طويلة، ترتص على جانبيه مصابيح تحوم حولها حـــشرات طائرة. ينسج صوت المذيعة مع مواء قطة في الجوار أغنية حزينـــة. تثاءب وهو يستمع إلى المذيعة التي تعيد قـــراءة عنـــاوين نـــشرة الأخبار على عجل:

- (الصحافة الدانمركية ما تزال تواصل استهزاءها بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم)،(ردود أفعال الدول الإسلامية إزاء تهجـــم بابا الفاتيكان على النبي محمد صلى الله عليه وسلم).اتسعت ابتسامة المذيعة وهي تنهي النشرة وتتمنى للمشاهدين مساءا سعيدا .

أغلق التلفاز وخرج إلى الشارع لا يلوي على شيء . يذرع الرصيف بخطى متوترة، يضرب بقدمه علبة معدنية فارغـــة باتجـــاه

حائط، فترتد صوبه محدثة قعقعة قوية أيقظت قطة نائمة بجانب حاوية قمامة.

الهواء يزداد ثقلا. تلفّت حوله وتساءل في نفسه: لَمَ يبدو الشارع حالك الظلام على الرغم من غلالة الشفق التي يتماهى احمرارها مع الضوء الأصفر المنبعث من المصابيح؟!.

اتكأ على سيارة رابضة على جانب الطريق، وتأمّل ملصقا مثبّتا على زجاجها الخلفي:(كلنا فداك يا رسول الله).ابتسم ابتسامة سقيمة وجعل يقرأ الملصقات الأخرى التي تغطي واجهات الدكاكين والبنايات:(قاطعوا المنتجات الدانمركية)،(نحري دون نحرك يا رسول الله)، قاطعوا ،و قاطعوا ، وقاطعوا ، وقاطعوا. سعل ثم بصق على الرصيف.

تحاذيه السيارات المنطلقة،تتراءى له مصابيحها كسيول من شرر تهدر وتتدفق في اتجاه الأفق. تتقطر المرارة في جوفه الخاوي ثم تسيل من مسامه، وتنسكب قطرانا على وجوه المارة والبنايات وشوارع المدينة التي تعبث بشعرها وتبتسم ببلاهة.

يستسلم لخدر بارد يجتاح أوصاله. تتحدر الدموع من عينيه.تشتد الرطوبة و تنداح في الهواء رائحة مطر مشوبة برائحة مياه المجاري. تتجه خطاه صوب الأفق الموغل في الغموض .

يحاذي مسجدا صغيرا فتحين منه التفاتة عابرة إليه، يجتازه وسرعان ما يرجع إليه ويتأمله وهو واقف على عتبته:جدران زرقاء تميل إلى البياض، نوافذ زجاجية تعكس ضوء المصابيح المتدلية من السقف، أبسطة خضراء مزركشة يفترشها المصلون وأرفف خشبية تتكدس عليها المصاحف والكتب.

وفي وسط المسجد يتصدر إمام المسجد حلقة من الصبية . يرتّل الإمام بصوت شجيّ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1] فيردد الصبية وراءه بصوت واحد ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ .يصحح الإمام تلاوة الصغار:

- قولوا﴿لَأَغْلِبَنَّ﴾ فخموا حرف الغين وأظهروا الغنّة في النون المشددة. يردد الصبية ﴿ لَأَغْلِبَنَّ﴾ .
- مرة أخرى.

---

[1] سورة المجادلة ، الآية ٢١.

- لأغلبنّ .

- المرة الأخيرة .

- لأغلبنّ .

تثاءب وأكمل سيره. ابتعد عن المسجد أمتارا قليلة ثم التفت صوبه وعاد إليه تارة أخرى، اتكأ بظهره على جدار المسجد. انزلق إلى أسفل وجلس على التراب واضعا رأسه بين ركبتيه. يهدهده هواء فاتر ينساب من داخل المسجد، يثقل النعاس جفنيه فتأخذه سنة وما تلبث أنامل دقيقة أن تربت على كتفه. الأنامل تربّت بإلحاح فيستيقظ ويتفرس في وجه الصبي الواقف بين يديه: وجه مستدير مشرق، مسحة وردية تعلو الخدين، وغمازة عميقة بجانب الفم. يرنو الصغير إليه بعينين واسعتين فاحمتي السواد، إلا أن ثمة ضوء بعيد يتلألأ في العينين يتدانى وئيدا قويا ساطعا. تأبّط الصبي مصحفه الذي كاد أن يسقط منه وربت على كتفه متسائلا:

- ما بك يا عم ؟ .

ابتسم للصغير وظل يحدق في ذاك الضوء الموشك على الانبثاق.

صديقتي التي...

الطريق من المستشفى إلى بيتنا قصيرة، ولكن خطواتك الوئيدة تطيلها. في بعض الأيام أملّ من انتظارك فأتركك وأكمل الطريق بمفردي، وفي أيام أخر أسبقك ببضع خطوات ثم يرقّ قلبي لك، فألتفت إلى الوراء وأتأملك وأنت تنحنين بشدة باتجاه ساقك اليسرى القصيرة ثم تنتصبين قائمة على قدمك اليمنى، ثم تسحبين ساقك اليسرى بمشقة، عندئذ أرجع إليك لنكمل الطريق معا.

أخبرتك سابقا أنني أنتظر مشوارنا اليومي هذا بفارغ الصبر لكي أبوح لك في أثنائه بمشاكلي اليومية حتى إذا ما ولجتُ إلى بيتي غمرني إحساس بالراحة والخفة!. كثيرا ما كنتِ تعلقين على هذا المشوار بأنه أشبه ما يكون بزيارة للطبيب النفسي!.

كنتِ خلاله تشتكين من زميلتنا اللئيمة التي توقع بينك وبين المدير، ومن خوفك من فقد وظيفتك، ودواء أمك الذي ارتفع ثمنه، وشقيقاتك الصغيرات وطلباتهن التي لا تنتهي، ولكنني كنت ألحظ ياصديقتي أنك تتحاشين الاقتراب من تيارات جراحك العميقة خشية أن تجرفك إلى أغوارها فتبوحين بما لا تودين البوح به لمخلوق.

أما أنا فأخالك تحسبيني كتابا مفتوحا لا يخفى عليك منه شيء، ولكنك لا تعلمين أن ثمة سراديب معتمة مغلقة في نفسي تضج بالألم، وعندما يفيض الألم وتكتسح سيوله سدود صمتي اضطر للإفصاح عنه، فألجأ حينئذ إلى الكذب أو حيلتي المعتادة وأسرد لك مقدمتي المكرورة:

"إن لي صديقة لا تعرفينها. سأعرّفك عليها لاحقا، رأيتها قبل أيام في بيت فلانة، وروت لي قصتها ومعاناتها"، ثم أسرد لك مشكلتي بصراحة متناهية بكل تفاصيلها القاتمة. لقد حدثتك كثيرا عن صديقة لي اعتاد زوجها أن يضربها حتى يدميها، وثانية كانت أمها تكرهها لأنها لم تكن جميلة مثل شقيقاتها، وثالثة تتهرب النساء من شخصيتها المملة ورابعة لا يحترمها أبناؤها، وكنت تصغين إليّ باهتمام بالغ وتعلقين من حين لآخر بعبارات تجسد تعاطفك مع صديقاتي المُختَلَقات اللاتي أتوارى خلفهن لأتحدث عن نفسي بلا حرج.

واليوم دار حديثنا اليومي حول حفل زفافك الذي أقيم قبل شهرين، وخضنا في تفاصيل تلك الليلة: القاعة الفارهة، وفساتين المدعوات الباذخة، وقامة زوجك الفارعة، ووسامته التي أثارت

غيظ المدعوات وحسدهن فسرت تعليقاتهن في القاعة حتى اخترقت أذنيك كالرصاصة:

- عريس أعمى القلب!. ألم يرها قبل أن يخطبها؟!، عرجاء وقصيرة!.

وإذ وصلنا في حديثنا إلى تلك العبارة، آثرتُ تغيير مجرى الحديث فشرعتُ أثني على ذوقك في اختيار أثاث بيتك، وأتحدث عن السعادة الغامرة التي تعيشها بعض صديقاتنا المتزوجات على الرغم من الاختلاف الجذري بينهن وبين أزواجهن في الصفات والطبائع، إلا أنك كنت شاردة صامتة تغمغمين من حين لآخر بتعليقات فاترة.

لم يكن يفصلنا عن بيتك سوى أذرع قليلة عندما توقفتِ عن السير، وضغطتِ على يدي بقوة ثم سألتني:

- أتذكرين سهام صديقتنا التي كانت تدرس معنا في المدرسة الابتدائية؟.

- لا أذكر امرأة بهذا الاسم .

- سهام، تلك الفتاة الطويلة الرشيقة.

- لا والله لا أذكرها .

بدا عليك الارتباك حين أردفتِ :

- ما أشد نسيانك يا صديقتي!، ولكن لا بأس، سأعرفك عليها لاحقا. لقد رأيتُ سهام في بيت إحدى صديقاتي قبل أيام وروت لي قصتها واستشارتني في أمر يخصها.

- صمتِّ وازدردتِ ريقك بصعوبة فتسارعت خفقات قلبي وسألتك متوجسة ما بها ؟ .

- أنت تعرفين أنني ما زلت عروسا جديدة وليس لدي خبرة كافية فيما استشارتني بخصوصه، فأحببت أن أعرض مشكلتها عليك لأنك متزوجة منذ سنوات طوال. ما رأيك ياصديقتي ألا يمكن للمرأة أن تحيا حياة زوجية سعيدة، إذا كانت علاقتها الخاصة بزوجها سيئة؟ .

- ارتعشت يداك وأنت تخرجين منديلا من حقيبتك وتجففين العرق المتساقط على عينيك ثم قلتِ بصوت متهدج:

- صديقتي .....

ضغطت بقوة على حروف كلمة (صديقتي) ثم أردفتِ:

- تقول أن زوجها لا يبالي بمشاعرها على الإطلاق!.

سرداب التاجوري

عندما كنت صغيرة، كنت أسكن مع أسرتي في بيت من بيوت التاجوري، وأذكر أنني كنت أجدكلامي وضحكي بل وأنفاسي تختبئ بين طوب البيت القديم. وكنت أركض حافية القدمين في دهاليزه الطويلة فتدخلني برودة الطبطاب من أسفل قدميّ وتذهب قيظ الصيف. وفي الصباح اعتدت أن أغسل مع أمي درج البيت المتآكل بمكنسة من جريد النخل، وعندما ننتهي يجفف الدرجَ الهواءُ الذي يتخلل البيت من النوافذ والأبواب. وكنت أحب بعد ذلك أن أسترخي على (بسطة) الدرج، وأضع خدي على الأرض الرطبة الندية، وأشم رائحتها فتدغدغ مشاعري، وقد يسرقني النوم هناك فتحملني أمي وتضعني في فراشي. وبعد العصر تجتمع بنات الجيران في بيتنا ونجلس على (الدكة) القريبة من باب البيت مع عرائسنا القماشية المحشوة بالقطن والمزينة بالشرائط الملونة والأزرار والكشاكش، ثم نخرج من هذا العالم إلى عالم العرائس وقصصهن المشوقة، ونصنع لهن بيوتا ودواليب وأسرّة من بقايا الصناديق الخشبية الملقاة في زوايا الحارة. وحين تنعس العرائس وتنام تنصرف البنات مع عرائسهن. أحببت كل مكان في بيتنا:(القاعة)

و(الديوان) و(المقعد) والحجرات الأخرى، خلا مكان واحد هو السرداب، وهو مكان معتم مجهول في الطابق السفلي، مغلق بباب خشبي مشروخ، وكنت أخشى رؤية بابه فكيف لو أنني دخلته؟!!!.

بعض جيراننا قالوا: إنه نفق ضيق مهجور يربط التاجوري بـ(المناخة) وبعضهم قالوا: إنه مسكن للجن، أما أمي فكانت تمل من أسئلتي الكثيرة عن السرداب ولا تجد جوابا فتقول لي:

- إنه نفق طويل يمتد كالعروق في جسد المدينة المنورة.

فأسألها:

- وإلى أين يذهب؟.

فتقول:

- إلى قلب المدينة الذي يحبنا ونحبه .

فأصمت حينئذ ولا يبقى في نفسي شئ سوى تخيل تلك العروق المتصلة بالقلب، فيقشعر جسدي ويغمرني إحساس مبهم لا أعلم ماهيته. وفي المساء كانت أمي تملأ(السطل) بالماء من الطابق السفلي وتصعد الدرج المؤدي إلى سطح البيت الترابي، فترش التراب

بالماء ثم تفرش بعض الحصير وتضع فوقه أبسطة وفرشا ووسائد لننام عليها.

كانت حكايات أمي تتفتح فوق السطح كالأزهار، أحدق في النجوم البعيدة في السماء، وأصغي إلى حكاياتها عن بلدتنا الصغيرة في فلسطين، وعن بيوت تلك البلدة التي يحتضن كل بيت فيها ساحة صغيرة مزروعة بأشجار البرتقال والزيتون، وعن رائحة تلك الأرض التي تتشبث بجذور الأشجار بقوة، وعن لون ترابها الطيب الخصيب. وكانت تصف طرقات تلك البلدة التي تمتد كالأذرع القوية وتضم البيوت، وعن سمائها الصافية وهوائها العليل، وبيت جدي القديم وأثاثه المرتّب، والسلال المنسوجة من الجريد الممتلئة بخيرات تلك الأرض، وخبز جدتي الشهي الساخن الذي تعجنه بيديها وتخبزه في التنور.وحين تنتهي أمي من حكاياتها تبلل دموعها خدي فتتحرك في نفسي لواعج الشوق إلى رؤية تلك البلدة. وذات مرة سألت أمي:

- لو أن اليهود خرجوا من بلدتنا فهل نرجع إليها ؟ .

- بالطبع يا حبيبتي!، أهلونا وبيوتنا ومزارعنا وسماؤنا كلهم يتحرقون شوقا إلى رؤيتنا، ونحن أيضا نحلم بذلك اليوم.

- ولكنني ياأمي أحب بيتنا هذا.

فصمتت أمي و لم تقل شيئا.

وذات يوم استيقظت من نومي فرأيت والديّ يعدان حقائب السفر ويحزمان متاع البيت، قالا:

- الحمد لله!،خرج اليهود من بلدتنا. سنرجع إلى أرضنا و أهلينا ومزارعنا.

ذهبتُ إلى الطابق السفلي، فتحتُ باب السرداب المشروخ، هربتُ مع عروستي، اختبأتُ في ذلك المكان الممتلئ بالأخشاب والمتاع القديم والتراب والرطوبة[1].

---

[1] التاجوري والمناخة هما من الحارات القديمة في المدينة المنورة.

علاقـــة

تململَت في مقعدها الملتصق بمقعده، وحدجتـــه بنظـــرات متوجسة حين أخرج السكين من جيبه و قذفها في الهواء إلى أعلى، وقبل أن تسقط التقطها بخفة مدهشة، وقلّبها بين أصابعه بطريقـــة بهلوانية، ثم قذفها تارة أخرى إلى الأعلى.

سرت في جسدها تلك الرعدة المعتادة، تصبّب العرق منها غزيرا، تجمدت الكلمات في حلقها الـــشديد الجفـــاف. صـــمْت موحش سبق كلماتها المقطعة:

- ألن ..... تكف ... عن إيذائي ؟ ! .

رماها بنظرات فاترة قائلا :

- أنا لا أؤذيك ...أنا ألعب !

- انظر إلى جسدي المثخن بالجراح من جرّاء لعبك .

- أنا لا أتعمد إيذاءك، أنا ألعب فحسب .

- ولكنك أقرب الناس إليّ، ويجدر بك أن تتجنب إيذائي .

رد بحنق:

- إن عليك أن تعي أنها مجرد لعبة أجد متعة في ممارستها .

- ولكنها تؤذيني .

- أف ! قلت لك لا أتعمد إيذاءك .

قذف السكين إلى أعلى فتبعتها عيناها بوجل، وما لبثت السكين أن هوت على ذراعها قبل أن يتمكن من التقاطها. انبجس الدم غزيرا من جرحها العميق فقالت :

- لا بأس، سيندمل بعد حين.

جعلت تضغط بأصابعها بقوة على الجرح، إلا أن الدم ظل يتدفق من الشريان المقطوع !.

صباح الدم

أتأملك يا أبي من وراء فرجة باب حجرة نومي، صبيحة ليلة عرسي. أتيتَ مبكرا كعادتك عندما تزور بناتك في مثل هذه المناسبة.

أتيتَ خائر القوى، جاف الحلق، زائغ النظرات. يلوح على وجهك ذلك الانكسار الحاد العميق الذي غدا جزءا من ملامحك، و تطوّق عنقك أغلال سوداء ثقيلة لا يراها أحد سواي. لم يعد هناك إنسان يهددك بعد أن تزوجت شقيقاتي كلهن غيري يا أبي، أنا ابنتك التي لم يأتها نصيبها إلا عندما شارفت على الأربعين من العمر .

كانت شقيقاتي يصفن حالتك في صباحيّاتهن، وكيف كان أزواجهن يعطونك ملاءة السرير البيضاء الملوثة بالدم وهم يهنئونك قائلين:

- بيّض الله وجهك يا عمي.

عندئذ تنفرج أساريرك، وتسترد أنفاسك، وتحتسي جرعات من الماء البارد لتطفئ الحرائق المستعرة في جوفك. لطالما تمنيتُ وأنا

أصغي إلى أحاديثهن أن لا أتزوج قط لكيلا أرى وجهك في ذلك الموقف العصيب، ونَمت تلك الأمنية في نفسي بعد أن تزوجَت ابنة عمي اليتيمة؛ وجهها الشاحب المذعور ووجه الطبيب الذي فحصها مسماران مغروسان في قلبي. كان الطبيب يحاول سدى أن يمتص غضبك العارم وهويشرح لك عبارته:

- إنها عذراء ولكنها من الحالات الشاذة التي لا تترف .

وعندما هممنا بمغادرة العيادة ألقيت بعبارتك في وجهه:

- هراء ! . الدم هو الدليل الوحيد على عفة الفتاة . الله لا يبتليني أنا أبو بنات . الله يستر عليها وعلينا .

حين سمعتُ عبارتك تلك هوى قلبي في جبّ لا قرار له وهاجت في نفسي عواصف التوجس. ماذا لو كنتُ مثلها يا أبي؟!.أي أرض ستقلّني وأي سماء ستظلني؟ أين المفر منك آنذاك ؟. ألوذ بسريري،أتأمل الضوء الشحيح المنبعث من وراء الستائر الداكنة،والهواء يعبث بباب حجرتي. تبدو وأنت جالس في زاوية الصالة كالسجناء المحكوم عليهم بالإعدام في لحظاتهم الأخيرة، حين يصغون إلى وقع أقدام جلاديهم وهي تدنو منهم.

كنت تختلس النظر إلى باب حجرتي ومن حين لآخر تنظر إلى الساعة مستبطئا مرور الوقت، وتطلق زفرة كأنها نفس من أنفاس جهنم.

حدقتُ في عينيك المتقدتين وأبحرتُ في ذهنك الذي تتلاطم فيه أمواج الريبة والخوف.لماذا تأخر زوجها في الخروج من الحجرة؟! لا بد أن هناك خطبا ما!.لا .. لا ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ابنتي فتاة شريفة، أعرفها.ابنتي الكبرى العاقلة، أنا ربيتها فأحسنتُ تربيتها، وأخواتها اللاتي تزوجن قبلها لسن أفضل منها خلقا وتدينا، ولكن من يدري لعل شيئا ما قد حدث لها عندما كانت طفلة!.

ما أشد تلهفك على رؤية وجه زوجي يا أبتِ!. أجزم أن ضغطك الآن قد حاذى حدوده القصوى. كل شيء فيك يحترق في أتون الانتظار، تتراءى لك هاوية المهانة التي تتأرجح على شفيرها. يكاد الدم ينبجس من مسامك، يتفصد العرق من جبينك غزيرا، تتحد قطراته وتجري في أخاديد وجهك ثم تتزلق باتجاه ذقنك. غدا وجهك قطعة رمادية باهتة بلون شعرك وأنت ترشف رشفة من العصير، أخالها تسيل في حلقك كحمم البراكين .

أغمضتُ عينيّ وهربتُ إلى الزقاق القديم، أركض فيه طفلة صغيرة تطير ورائي جديلتي وكشاكش فستاني الواسع، أدسّ جسدي النحيل بين أجساد الصبية وهم يلعبون، ثم يهرب أحدنا فننطلق على أثره كأسراب الطيور. كانوا يختبئون فوق الأسطح الترابية وكنت أختبئ في صندقتي المهجورة التي لا تعرف مكانها يأبي .

مازال قطار الزمن متوقفاً عند باب حجرتي، وأنت منهمك في تجفيف عرقك المتصبب، بينما يرتدي زوجي ثيابه بتؤدة و يبحث في سلّة الملابس المتسخة عن ملاءة السرير. عندما خرج إليك سحبتُ اللحاف على جسدي المتعرق المرتعش و دفنت رأسي تحت الوسادة. استسلمت لرحى اللحظة الحاسمة تسحقني فأتطاير في الهواء كالغبار.

تفتحت كل جراحي القديمة، يتدفق منها الدم حارا لزجا غزيرا، أشم رائحته التي تبعث الخدر في أوصالي وتصيبني بالدوار. بقع الدم تتناسل حولي وتلطخ الجدران والأثاث والسماء البادية من الفرجة الصغيرة للنافذة. تصطخب في أغواري رؤى متداخلة وتطل عليّ برؤوسها كالعناكب يوم أن بلغتُ وأصبحتُ امرأة، بيتنا الذي

يعج بالتفاصيل الأنثوية، صراخ أمي وهي تضع في المستشفى، ووجهك المُسوَد وأنت واقف هناك، تمتطي صهوة الأماني وما تلبث أن تهوي على صخرة الكلمة التي تتفوه بها الممرضة: بنت! .

وضعتُ إصبعيّ في أذنيّ لكيلا أسمع صوتك، ولكن قهقهتك دوت في حجرات البيت كطلقات مدافع العيد.هائجا كنتَ، تصيح تارة وتهذي تارة ، ثم تردد بصوت متحشرج:
- الحمد لله .. الحمد لله . ألف مبروك ... ألف مبروك.

ناديتني فلم أقو على الرد ولا على الوقوف على قدميّ، فاقتحمتَ حجرتي مادا ذراعيك لتحتضنني.كان وجهك مشرقا مبتهجا كشمس الصباح حين قبّلتَ رأسي ووضعتَ في يدي نقودا، وأنت تردد بصوت خنقته العبرة:
- بيّض الله وجهك يا ابنتي كما بيّضتِ وجهي .

تحاملتُ على نفسي ووقفت على النافذة أراقبك وأنت تتجه صوب سيارتك بخطى رشيقة. لم تكن تتكئ على عكازك، بل كنت تلّوح به في الهواء وأنت ترقص وتدور حول نفسك. كان

ظهرك منتصبا على غير عادته، ورأسك شامخاً كالجبال حين ركبتَ سيارتك وانطلقتَ بها تسابق الريح.

خطوات ميتة

لم يبق في حجرة الانتظار سوى فتاة آسيوية تجلس في زاوية الحجرة بجوار كرسي متحرك، تشاهد التلفاز ، وامرأتين تجلسان متقابلتين إحداهما استقرت في مقعدها بهدوء تغالب النوم، والأخرى تتصفح المجلات المكدسة على الطاولة تارة، وتارة أخرى تنهض بخفة وتعبث بمفاتيح جهاز التكييف محاولة تشغيله ثم تعود إلى مقعدها، بينما تراقب المرأة الأخرى خطاها الرشيقة من خلف جفنيها اللذين أثقلهما النعاس. ارتمت المرأة على مقعدها وصرخت متذمرة:

- الجو حار والمكيف معطّل.. أف ! أكاد أختنق.

أزاحت الخمار عن رأسها وحلت الأزرار السفلية لعباءتها ثم وضعت ساقا على ساق، وشرعت تهز ساقها بسرعة وانفعال.بدأت المرأة الأخرى تتحسس بنظراتها الساق البضة البادية من وراء زجاج الطاولة التي تتوسطهما، وعندما لاحظت المرأة تلك النظرات الغريبة، أغلقت أزرار عباءتها بانفعال وأشاحت بوجهها عنها،

ارتبكت الأخرى وابتسمت ابتسامة تجلّي اعتذارها عـــن تلـــك النظرات، ثم تظاهرت بمشاهدة التلفاز.

كانت المرأتان تتبادلان بأعينهما سؤلا ملحا، وبغتة تساءلتا في اللحظة ذاتها:

- إلى أي عيادة ستذهبين؟ .

فوجئتا بالمفارقة فضحكتا وخالجهما إحساس بالألفة .

سألت إحداهما الأخرى : ـــ

ما اسمك ؟ .

- خلود ، وأنت ؟ .

- هيفاء .

قالت هيفاء وهي تمسح العرق المنساب من جبينها:

-كنت في السابق أزور العيادة الباطنية لأنني أعاني مـــن القولـــون العصبي،ولكن عندما افتتحت عيادة نفسية في المستـــشفى أصبحتُ أتردد عليها.

رفعت خلود حاجبيها باستغراب معلقة:

- عيادة نفسية هنا ! .

التفتت هيفاء صوب التلفاز محاولة إخفاء وجهها الذي بدأ يحتقن لونه. ترقرقت من عينيها دموعاً غزيرة سالت بسرعة على خدها وسقطت في حجرها، عندئذ غطت وجهها بمجلة وانخرطت في البكاء.

ساد الوجوم الحجرة و تبادلت خلود مع الفتاة الآسيوية نظرات قلقة. شردت هيفاء هنيهة ثم تحدثت بصوت متهدج:

- لا أدري ماذا سيحل بي إن انتهى الوقت دون أن أقابل الطبيب! اليوم أكاد أنفجر.

- مابك يا هيفاء ؟ .

اتكأت هيفاء برأسها على ظهر المقعد برهة ثم قالت وهي تقضم أظافرها:

- أنا الأبنة الوحيدة لوالديّ اللذين أنجباني بعد عشرين عاما من الانتظار.

بدت عينا هيفاء كجمرتين متقدتين حين صوبتهما إلى خلود وتساءلت بنبرة مشبعة بالمرارة:

- أتدركين قصدي؟.

.....

- يعيش والداي هاجس فقدي . يخافان علي من كل شيء من المرض والبرد والحر والناس، في بعض الليالي يستيقظ أحدهما فزعا ويضع يده على صدري ليتأكد أنني مازلت على قيد الحياة!. إن بقائي في البيت تحت أنظارهما هي طريقتهما الوحيدة للتخلص من مخاوفهما.
- هوني عليك يا هيفاء، فالشدة لا تدوم. أسأل الله أن يفرج همي وهمك .
- أنا الآن في الخامسة والثلاثين من عمري و لم أكمل دراستي، ولا أزاول مهنة، بل ولّما أتزوج.

نهضت هيفاء وتوجهت مرة أخرى إلى جهاز التكييف، بينما تراقب خلود خطاها بشغف. عادت هيفاء إلى مقعدها بهدوء قائلة:

- أنا لا أملك أن أخطو خطوة واحدة خارج المسار الذي يرسمانه لي.

بدأت تنفرج أسارير هيفاء فابتسمت لخلود وقالت بود:

- أتعلمين؟، لا داعي لأن انتظر الطبيب، لقد أحسست بالراحة عندما تحدثت إليك .
- ..... .

- وأنت يا خلود إلى أي عيادة ستذهبين ؟ .

اضطربت خلود وتظاهرت بالبحث عن شيء ما في حقيبتها ، عندئذ دخلت الممرضة إلى الحجرة ونادت بصوت مرتفع:

- خلود،هيا أسرعي.الطبيب ينتظرك. سينصرف بعد دقائق.

نهضت الفتاة الآسيوية من مقعدها ودفعت الكرسي المتحرك باتجاه خلود ثم رفعت خلود من المقعد بمشقة ووضعتها في الكرسي، في تلك الأثناء انحسرت عباءة خلود عن ساقين ساكنتين شديدتي النحول وقدمين ضامرتين تنثنيان إلى الخلف، تهتزان تبعا لحركة الكرسي وهي تغادر الحجرة. التفتت صوب هيفاء وابتسمت قائلة:

- أرجوك لا تنصرفي قبل خروجي من العيادة . أود أن تعطيني رقم هاتفك .

مثل ما أحب أمي

كانت ليلى تراقب الطبيب بضجر وهو يتنقل بين أسرّة المريضات، وما أن انصرف من الحجرة حتى صاحت قائلة:

- قرف!، أسبوع آخر في المستشفى .

ضربت بكلتي يديها على طاولة الطعام فاهتزت الصحون والملاعق محدثة قعقعة لم يتنبه لها خلا شابة ترافق إحدى المريضات في أقصى الحجرة. أزاحت الشابة الستارة التي تواريها وحدجت ليلى بنظرات تنم عن استهجان، ثم أسدلت الستارة. بعد قليل رنّ هاتف ليلى فسارعت إلى الرد:

- أحمد حبيبي، أكاد أنفجر من شدة الغيظ!. تخيّل هذا الطبيب البغيض قرر أن تمكث أمي في المستشفى أسبوعا آخرا. أنت تعرف كم أكره رائحة المستشفيات، وأنني لا أستطيع النوم إلا على سريري . أف !، ماذا أفعل؟.

كانت ليلى تتكلم بصوت حاد مرتفع أيقظ أمها النائمة على السرير بقربها. أغلقت ليلى الهاتف ثم أخرجت من حقيبتها مجلة وشرعت تتصفحها.

غمغمت الأم بكلمات مبهمة إلا أن ليلى لم تلتفت إليها فمدت الأم يدها إلى أقصى حد تطيقه، وحركت أصابعها بمحاذاة وجه ابنتها لتلفت انتباهها، بيد أن ليلى أشاحت بوجهها عنها وأغلقت المجلة. تململت الأم في سريرها وهي تحاول جاهدة إخراج الكلمات المحتبسة في حلقها الذي يمتد فيه أنبوب بلاستيكي طويل، وبعد طول عناء خرجت الكلمات من فمها ممزقة:

- ما ذا ..... قال ..... الطبيب ؟.

-..... ؟ .

- يا ابنتي، أتعبتك .... معي. اذهبي إلى .... بيتك. منذ أسبوع .... وأنت بعيدة عن زوجك..... لا تقلقي .. عليّ. الممرضات..هنا... طيبات .. سيعتنين بي .

التفتت إليها ليلى ورشقتها بنظرات غاضبة دون أن تنبس بكلمة.

ظلت الأم تحدق في ليلى تنتظر سماع تعليقها على ما قالته، وإذ يئست من ذلك أدارت وجهها صوب الجدار واستسلمت للنوم، في ما انساب خيط من الدمع على خدها المتغضن.

قذفت ليلى المجلة على الطاولة واشرأبت برأسها تراقب الشابة التي بدت من فرجة ستارتها. التقت أعينهما فابتسمت ليلى لها ومشت صوبها. كانت الشابة تطعم عجوزا راقدة على السرير، وتمسح بمنديل بقايا الطعام المتساقط على رقبة العجوز. سألتها ليلى:

– منذ متى وأنتما هنا ؟ .

– منذ أسبوعين .

– أسبوعين ! ؟ ، وكيف حال أمك اليوم ؟ .

– إنها ليست أمي .

– عذرا . سمعتك مرارا تنادينها بأمي فظننتها أمك !.

نظرت الشابة إلى عيني العجوز بحنوّ وربتت على رأسها قائلة:

– أمي توفيت رحمها الله، وهذه جارتي امرأة وحيدة، لا أقارب لها ولا أبناء، ولكنني أحبها مثل ما أحب أمي!.

عصفور على النافذة

كالعادة، تتكرر التفاصيل اليومية لظهيرتي الباهتة عدت من عملي وتناولت غدائي ثم استلقيت على سريري. تترّ دماملي القديمة وتحاصرني رياح البكاء الثلجية.

قرأت ذات مرة أن طول زمن التعايش مع الحزن يورث تبلد الحس،ولكنه بالنسبة لي أورث المزيد من الألم!. ذاك الحزن المعتّـــق المترسب في أعماقي كجنين ميت يابس،من سيجتثه؟!

الصمت روح تسكن أوصال شقتي الصغيرة. لا شيء سوى دقات الساعة وخرير الماء المتسرب من ماسورة المطبخ المـــشروخة. أحدق في الفراغ، أبحث عن النوم و أعبث بأوراق مبعثرة متدلية من درج الدولاب رسالة من أمي،وفاتورة كهربا ء،وورقة طلاق!.

جرس الهاتف يرن فتمزق نغمته الحادة السكون المطبق على البيت. رفعتُ سماعة الهاتف فجاءني صوت ابنة الجيران:

- أمي تريدك يا خالة .

تركَت الصغيرة سماعة الهاتف وركضَت لتنادي أمهـــا. لم تتصل بي جارتي منذ فترة طويلة!. لا بد أنها اشتاقت إليّ. سرت في جسمي دفقة من الفرح حين سمعت صخب أبنائها وهم يتعاركون ليمسكوا سماعة الهاتف ويتحدثون معي. بغتة صفعني صوتها المزمجر:

– ما هذا الإهمال! الماء المتسرب من مطبخك أغرق مطبخي. كـــم مرة أخبرتك بهذا !

– لم أعثر على سباك. غدا سأواصل البحث.

بلعتُ غصتي حين اكتشفتُ أنها وضعت الـــسماعة دون أن تسمع ردي. نهضت من السرير وطفقت أتسكع في الشقة. اتكأت على باب المطبخ أتأمل شرخ الماسورة الآخذ في الاتساع . اقتربت منها وانحنيت فوق بركة الماء الصغيرة التي تجمعت بجوار البالوعـــة، فاكتشفت أن دموعي تتساقط تباعا فيها.

عدت إلى سريري. بدأ النعاس يراودني. ما أجمل الهروب إلى النوم! تهدهدني دقات الساعة فأطفو في فراغ الحجرة واستـــشرف شواطئ النوم الدافئة. فتحت عينيّ بقوة حـــين تنـــاهى إلى سمعـــي تغريدك قرب النافذة . تمتمتُ:

– عصفور هنا!.

نهضت متثاقلة لأفتح النافذة، فرأيتك على سطح مترل قريب. لعلك يا عصفور تعبت من التحليق فتوقفت هنيهة لترتاح. تكومتُ في فراشي أصغي إليك تارة يعلو تغريدك قويا فرحا، وتارة يخفت متراخيا حزينا، وتارة أخرى يتقطع كنشيج مكتوم. لعلك تبث همومك إلى عصفور آخر قريب منك أو غائب عنك ، إلا أن تغريدك لا يشبه قط تغريد العصافير الذي اعتدت أن أسمعه في طريق عودتي من العمل!.

النعاس يثقل أجفاني. حاولت أن أظل مستيقظة لأصغي إليك ولكن النوم غلبني، وحين استيقظت لم يكن ثمة تغريد. وقفت على النافذة فرأيتك تقف على سطح بعيد، تغرد فتدثر غلالة تغريدك الأزقة الباردة والأبواب القديمة المتآكلة . تقف هناك وحيدا، تتقافز على الحبال بين مشابك الغسيل، تنظر تارة إلى الأفق البعيد فتطيل النظر، ثم تنظر إلى نافذتي و إلى الزقاق الضيق حيث يحاول صبي جاهدا اصطيادك بمطاطته. تلتقط بمنقارك فتات الخبز الناشف من شرفة ما ثم تحلق بعيدا في السماء، تبتعد وتبتعد حتى تبدو نقطة دقيقة في صفحة زرقاء ، ثم تتلاشى لتعود مرة أخرى تتقافز على حبال الغسيل .

ابق هنا يا عصفور. اقترب مني أر يد أن أحدثك. نظرتَ إليّ من بعيد ثم سبحتَ في الفضاء فيبست الكلمـــات في حلقـــي. هاأنت تحط على نافذة قريبة مني، حسنا، إصغ إلي يا عصفور:

- هل تعيش وحيدا ؟ ! وهل جربت صقيع الغربة؟عندما ينـــساك الآخرون؟ وعندما تدمن البكاء، وحين تهـــبط كريـــشة في هاوية لا قرار لها؟. هل يستوطنك الإحساس بأنك غصن مقطوع تدحرجه الرياح إلى أراض بعيدة موحشة؟. هـــل تبحث عن شيء تحتمي به عندما تسحقك عواصف الخوف فلا تجد إلا الفراغ؟. أنت لا تجيب، بل تنظـــر إليّ بعيـــنين دقيقتين مغمورتين بالحزن. من أي سماء أتيت؟، و لمَ آثرت التغريد هنا على نوافذ متربة لبنايات قديمة، شرفاتها تحتضن أصص زهور ميتة ؟. ألا تحن إلى بلادك البعيدة؟!. حلقـــتَ بعيدا ثم حططتَ على مصباح مكسور في الزقاق. مازلـــتَ بعيدا عن نافذتي، وأنا تعبتُ من الوقوف. أسدلتُ ســـتارة النافذة فاحتد تغريدك واضطرب. لعلك تناديني!،ولكنـــك تتحاشى الاقتراب من نافذتي ! ؟ . خفَتَ صوتك بالتدريج ثم تلاشى. ابتعدتُ عن النافذة وأويتُ إلى الصمت ودقات الساعة والخرير المتواصل.لحظات مضت وأنا أتقلب علـــى

الفراش. آه ، ليتك تعود يا عصفور !.ربما استوحشتَ في هذا المكان المنسي فقررت أن لا تعود ، أو لعل ذاك الصبي اصطادك!. لا بأس ، لقد فقدتُ كثيرا من أحبتي ! وها أنا من جديد أفقد عصفورا ! .

تشاغلتُ عن رغبتي في البكاء بمراقبة عنكبوت يروح ويجيء عند باب الحجرة. غطيتُ رأسي بالوسادة فسمعت تغريدك. لعلي أحلم!. جلستُ و حدقتُ مليا بستارة نافذتي التي تضطرب بقوة. وثبتُ باتجاه النافذة وسحبتُ الستارة فوجدتك على حافة النافذة !.

من سيصدقني عندما أؤكد لهم أن العصافير تبتسم ؟! .

أخرج ياسعيد

زوجي :

ربما تظن عندما تقرأ مقدمة رسالتي هذه أنني قد كتبتها كي أؤنبك، أو أذكرّك بما حدث في تلك الليلة التي أعلم علم اليقين أنك لم تنسها قط، بل لم ينسها أحد من أقاربنا وأصدقائنا اللذين سمعوا بها، ولكنني كتبتها لأذكّرك بسؤالي الذي كنت ألح عليك به وهو:

- ما تأويل رؤياي تلك؟. وكنتُ كلما طرحته عليك تقذف إجابتك في وجهي ككومة أشواك:

- أنا لست مفسرا للأحلام ! .

لقد حدثتك مرارا عن الرؤيا التي كنتُ أراها بين الفينة والفينة. أنا لم أرها منذ عام واحد أي منذ تلك الليلة ، و لكن الغريب في الأمر أنّي رأيتها البارحة بكل تفاصيلها المؤذية ، وما أن استيقظت من النوم حتى بحثت عن ورقة وقلم وشرعت أكتب رسالتي هذه .

كانت الرؤيا تدخلني كروح شريرة تفرز في عروقي عصارة الخوف والوحشة، إذ أرى أنني أسير معك في طرقات مدينة

مهجورة شديدة البرودة، بين بيوت قديمة مجهولة ، وأعرف في تلك الأثناء أن الطريق إلى بيتي يمر بتلك البيوت ، ولكنني بغتة أنسى في أي اتجاه ينبغي عليّ أن أسير كي أصل إلى البيت، فألتفت إليك، إلا أنني لا أراك فأركض مذعورة، أبحث عنك وأناديك ولكنك لا تجيب، ولا أسمع آنذاك سوى صدى صوتي المتردد بين تلك البيوت. ثم استيقظ فزعة فأتفل عن يساري وأستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. وما أن تمر أيام وأتعافى من تأثير تلك الرؤيا عليّ حتى تعاودني مرة أخرى.حين كنت أسردها على مسامعك لم تكن تبالي بها وربما علّقتَ ساخرا:

- أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين!، ثم تصمت فأشرد وتتمثل لي علاقتنا الواهنة كثوب قديم مهترئ، فاسألك:

- لعل البيت في الرؤيا يرمز إلى المأوى أو الأمن. ما رأيك ؟ .

فتهز كتفيك باستخفاف مرددا:

- ربما ... ربما ! .

عندئذ أحاول محاصرة نظراتك التي تتهرّب من عينيّ وتختبئ في زوايا الحجرة ، وأنت تعبث بمنديل أو ورقة.

أعلمُ أنك كنت تضيق ذرعا بأسئلتي حول الرؤيا، ولكن تلك الأسئلة كانت بمثابة مصباح أقبض عليه بأصابعي بشدة وأنا أتوغل في كهوفك المعتمة لعلي أهتدي إلى خباياك، بيد أن المصباح كان يُطفأ بغتة في كل مرة، لأجد نفسي عاجزة عن رؤيتك بوضوح.

في تلك الليلة التي تلت الرؤيا، عدتُ من بيت صديقتي مبكرة، فألفيتك في البيت على غير عادتك في مثل تلك الساعة. كان البيت يسبح في أمواج خافتة من الضوء، تنبعث في أرجائه رائحة عطر فاتن، والهواء ملبّد بدخان سجائرك. خرجتَ من حجرة النوم مرتبكا ودفعتني بكلتي يديك صوب حجرة الجلوس، وأغلقتَ عليّ الباب قائلا :

- عندي ضيف!.

ثم صحتَ قائلا :

- اخرج يا سعيد .

نظرتُ من ثقب الباب ولكن سعيد لم يخرج ، بل خرجَت امرأة ! أعرفتَ يا زوجي تأويل رؤياي ؟ ! .

زوجتك

خارج المفكرة

تلفّت حوله متأملا المقبرة الشاسعة الموحشة لوحة ترابية صامتة شاحبة تبرز على سطحها مئات الأحجار المتوسطة الحجم الهواء يصفّر بين جدران المقبرة وينشر في المكان رائحة غريبة شمّر عن ساعديه وانضم إلى الرجال الواقفين حول القبر الذي حفر توا التحمت أذرعهم القوية لحمل الجثمان وإنزاله في الحفرة المعتمة همهمتهم امتزجت بوجيب قلوبهم حين دنوا من حافة القبر، يسبرون بأعينهم ذاك الظلام الرهيب. كان حفّار القبور يرفع معوله عاليا ثم يهوي به إلى الأرض ويغترف ترابا ثم يهيله على القبر. صوت احتكاك المعول بالتراب يهيمن على الموقف. تبادل الرجال نظرات وجلة وكلمات وآيات بدوا وكأنهم يسمعونها لأول مرة ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[1] ، (رحمه الله) ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[2]. أطبق الوجوم عليهم عندما انتهوا من دفن الميت، أما هو فقد صافحهم بيد مرتعشة متعرقة ثم توجّه صوب سيارته وهو

---

(1) سورة البقرة ، الآية ١٥٦.

(2) سورة الرحمن ، الآية ٢٦.

ينفض عن ثوبه الغبار العالق به. ارتمى على مقعد السيارة ،أخـــرج من جيبه مفكرة و أنشأ يقرأ صفحتها الأخيرة:

ثلاث مهام عليّ إنجازها اليوم:

صلاة الفجر ثم دفن جاري فؤاد.

شطب بقلمه الموعدين الأولين ثم قرأ بشغف:

- أذهب إلى السوق لشراء الأثاث.

أدار مفتاح سيارته وانطلق بها كالسهم يشق طرقات البلدة التي بدأت تستيقظ على أولى خيوط شعاع الشمس، وإذ نجـــح في تبديد الظلال القاتمة لأحداث الساعة الماضية ندت عنـــه صـــرخة طفولية، وهو يتخيل منزله الجديد الذي فرغ من بنائـــه مـــؤخرا. غمرته نشوة عارمة فقال بنبرة مترعة بالفرح:

- رباه !، بعد عشر سنوات من الانتظار والعناء والديون، اكتمـــل بناء منزلي!.

أخذ يترنم بكلمتين (بيتنا الجديد) ويمد صـــوته بالكلمـــة الثانية.

-كيف مضى الوقت بسرعة؟! . تساءل وهو يغادر السوق وينظر في ساعته.

ركب سيارته وطفق يقلب فواتير المشتريات قائلا: الحمد لله لقد انتهيت من شراء الأثاث وجميع الأجهزة الكهربائية خلال ساعات قليلة. شرد هنيهة ثم قال بارتياح عميق:

- سيكون البيت مهيئا لاستقبال ناهد والأولاد حين يعودون غدا من السفر.

قاد سيارته باتجاه بيته الجديد يحدوه الشوق إليه. بدا له البيت كنجم بعيد في السماء أو قصر أسطوري، كلما اقترب منه تتسارع نبضات قلبه. وضع قدمه على عتبته فغمرته موجة قوية من الدهشة، أشعل المصابيح فتلألأت الثريات المتدلية من الأسقف وعكس البلاط الصقيل ضوءها. استنشق بعمق رائحة طلاء الجدران ثم ردّد:

- ما أجمل أن يمتلك المرء بيتا!.

ضحك وهو يتخيل ملامح الإعجاب والحبور على وجه زوجته وأبنائه ، وهم يصيحون و يتراكضون بين الحجرات والسلالم .

غمغم متثائبا : ـــ

كل شيء أُنجز كما أريد. أمر رائع!.

الهواء الفاتر المتسرب من النوافذ والهدوء المخيم على البيت أغرياه بالنوم بعد يومين لم تذق فيهما أجفانه طعم الكرى، فاستلقى على الأرض مداعبا المفكرة بفتور. أغمض عينيه واسترجع المهام التي أنجزها خلال اليوم. بغتة استيقظ من نومه مذعورا. نظر إلى ساعته التي تشير إلى العاشرة مساءا ،نهض متثاقلا وخرج من البيت. في الطريق إلى شقته بدأ إحساس قاتم ثقيل يكتنفه. طفق يتحسس المفكرة بإلحاح ، يقلّب صفحاتها ثم يضغط عليها بشدة فيزداد إحساسه بالضيق ، تكلم بصوت خافت:

- لقد نسيت شيئا ما .

استدعى المهام التي أنجزها من ذاكرته ورتّبها ثم تساءل بحنق:

- أف،ما الذي نسيته ؟ .

دلف إلى شقته، تهالك على السرير وأغمض عينيه. تراءى أمامه شريط أحداث اليوم المنصرم بكل تفاصيله القبر، محلات الأثاث، وجوه الباعة، الفواتير والمنزل الجديد. تقلب على فراشه محاولا الاسترخاء. أخذته سنة وما لبث أن استيقظ فزعا، جلس على حافة السرير، التحمت الهواجس في ذهنه كذرات تيار كهربائي يسري في جسمه المتعب مخلفا وراءه ألما ممضا ووهنا

شديدا.امتدت يده إلى مفكرته واسترجع في مخيلته المواعيد السابقة المنجزة قائلاً:

- أقسم أنني نسيت موعدا ما .

ومضت فكرة في ذهنه وسرعان ما انطفأت وتركته غارقا في ظلام دامس. استلقى على السرير فتراءى له مكان هلامي، يقترب منه ببطء. عبثا يستجلي تفاصيل المكان، يوشك أن يهتدي إلى ذلك الشيء، ذلك الموعد الذي يحسه وشيكا جدا . نهض من السرير واعتصر رأسه بكفيه بقوة كأنه يستخرج شيئا مختبئا في تلا فيف ذاكرته. أحس بغصة قوية في حلقه فخرج من المنزل. أنشأ يسير على الرصيف. تهدهده نسمات الليل وحفيف أوراق الأشجار.

يباغته صداع حاد وخدر ثلجي، تتراءى له مصابيح الشارع كدخان رمادي بعيد، يترنح في سيره، يسقط على الرصيف، يحاول سدى أن يستغيث.كأن أطنانا من الأحجار تسحق صدره وتخمد أنفاسه. يهبط في خواء سحيق موحش حيث ثمة رائحة غريبة تنداح في الهواء، ورجال يحملون جسده الساكن ويتزلونه في حفرة معتمة.

صناديق البكاء

جلس القرفصاء على الرصيف المقابل للدار يتأمل لوحة النيون الباهتة التي كساها الغبار وانطفأت بعض حروفها. قرأ اللوحة بصوت مختلج:(دار الرعاية الاجتماعية) ثُم قال:

- ربما يصلح الحارس الجديد اللوحة .

حين نهض من مكانه ومشى بفتور صوب بوابة الدار، بدت له نوافذها المضاءة كأضواء سفن بعيدة تبحر في بحر متلاطم مظلم. جلس على الكرسي يتابع بعينيه السيارات القليلة التي تمر من أمامه، وعندما يسود الصمت يصغي إلى حفيف أوراق أشجار الياسمين المتدلية على سور الدار المرتفع .

أرهف السمع إلى صوت ناء يتدانى وئيدا، كأنه يَسقُط حجرا في بحيرة الليل الساكنة فيتناسل صداه كدوائر تتسع بالتدريج وتصبغ السماء بالوحشة .

أيقن أن ذلك الصوت هو دوي بوق سيارة الإسعاف القادمة من المستشفى، ذلك الدوي الذي يستفز كل خلاياه، فتضج كهوف ذاكرته بوجوه وأصوات كثيرة:

- "عم حسن، بارك لي نجحت في امتحان الثانوية العامة "
- "عم حسن، الحمد لله سأتزوج قريبا!أتعرف من هي عروسي؟ . حنان فتاة من فتيات الدار".
- "عم حسن ، سمعتُ أن رجلا جاء يسأل عني. ربما يعرف شيئا عن والديّ "

نهض من كرسيّه عندما حاذت السيارة البوابة. بصق سيجارته المشتعلة على الرصيف، وهرول نحو السيارة مادّا ذراعيه لحمل الترِيل الجديد. ضمّ الوليد النائم إلى صدره وتحسس الزغب الخفيف الذي يكسو رأسه. قرّبه إلى أنفه وشم رقبته فسرت الرائحة في عروقه. تأمل اللفائف البيضاء المبقّعة التي تحيط بالجسد اللدن، والرباط الطويل الباهت الذي لُف حولها وعقد بإحكام حول القدمين الصغيرتين. استيقظ الوليد متململا ثم سكن، وما لبث أن حرّك ذراعيه وساقيه بقوة محاولا التحرر من الرباط. تمطى بفتور، اختلج رأسه، زمّ شفتيه ومدهما إلى أسفل ثم فتح عينيه الذابلتين، دارت عيناه في محاجرهما وكأنهما تجوبان في السماء وحين استقرتا أمام وجه حسن، انفجر باكيا. حينئذ غذّ حسن الخطى إلى البوابة الداخلية، حيث تنتظره العاملة ذات الكفين الكبيرتين، تبسطهما

إليه ثم تنحني بآلية لتأخذ الطفل وتنصرف ببطء عبرمن الهواء البارد. تساقطت الكلمات من فم حسن كأوراق الأشجار اليابسة وعيناه تلاحقان رأس الطفل على كتف العاملة:

- أعانك الله على أيامك القادمة ! .

تماهى وقع خطى العاملة مع بكاء الصغير ثم خفت الصوت شيئا فشيئا إلى أن تلاشى تماما حين ابتلعهما الممر. التفت صوب البوابة فرأى شابا يهمّ بالدخول، فرفع صوته متسائلا:

- أ أنت الحارس الجديد ؟ .

- نعم. لا بد أنك عم حسن حارس الدار.

جلس الرجلان متقابلَين عند البوابة. ربت الشاب على ركبة حسن بود وسأله:

- غدا ستغادر الدار، ألا يعزّ عليك فراقها !؟.

نهض حسن من كرسيه ورمى بطرفه صوب الأجساد التي بدت كأشباح تتحرك في شرفات الدار وخلف النوافذ.

تجهم وجهه وهو يشعل سيجارة ويجيب بنبرة حزينة:

- كيف لا يعزّ علي فراقها وقد أمضيتُ ثلث عمري هنا!، لا شيء يبقى على حاله يابنيّ. لقد كبرتُ وكثرت أمراضي.

صمت برهة ثم أردف بصوت مرتعش:

- أتعلم؟، أنا لا أتعب من الحراسة بقدر ما يشقّ عليّ نقل صناديق التموين والخضار من الشاحنات إلى المطبخ في الداخل.

نظر إلى ساعته قائلا:

- بعد قليل ستصل شاحنة تموين.

أطرق ثم استطرد متحسرا:

- هيه! تلك الصناديق، ستكون آخر صناديق أحملها!.

قذف سيجارته على الرصيف وتحسس ببصره نوافذ حجرات الدار التي أُطفئت مصابيحها وأُسدلت ستائرها ليهجع ساكنوها إلى النوم، قطف ياسمينة وطفق يفركها بين أصابعه ويشمها. بدا كأنه في مكان آخر بعيد عن البوابة وهو يتكلم بصوت عميق متأثر:

- خلال سنوات عملي الأولى كنا نستقبل طفلا كل شهر، ومع مرور السنين غدونا نستقبل طفلين، والآن نستقبل خمسة أو ستة!. رفع رأسه إلى السماء داعيا:

- الله يلطف بناو يرحمنا برحمته!.

ألقى بقايا الياسمينة على الأرض ثم عاد إلى كرسيّه.

قال وهو يحدق في لوحة النيون:

- دنيا عجيبة!،كانوا صغارا ثم كبروا وتعلّموا. بعضهم خـــرج إلى معترك الحياة وبعضهم .... صمت وعيناه معلقتان بنافـــذة قصية من النوافذ ثم أكمل عبارته:

- ما زال هنا.

كفّ حسن عن الكلام إذ تناهى إلي سمعه دويّ بوق سيارة إسعاف قادمة.

لم ينهض من كرسيّه، بل ظل يراقب الرجلين اللذَين ترجّلا من السيارة، ثم فتحا بابها الخلفي وشرعا يُخرجان منها صـــناديق بلاستيكية مكشوفة ويرصّانها تباعا على الرصيف.

أُزيحت الستائر عن نوافذ الدار، وبرقت خلفها عيون كثيرة في الظلام. مشى صوب السيارة متوجسا مصغيا إلى البكاء المتصاعد من الصناديق، وإذ وصل إليها جلس مبهوتا بين الصناديق التي يرقد في كل صندوق منها طفلان .

على بابـــه

يا الله ... يا الله..

كانت تلهج بهذه الكلمة وهي تدلف من بوابة البنك، و تجر قدميها الثقيلتين على بلاطه الصقيل. تسير خطوات قليلة ثم تتوقف لالتقاط أنفاسها المتحشرجة، وتسعل سعالا حادا ينتـــهي بـــصفير يلفت إليها انتباه النسوة من حولها. تمسك بإحدى يديها كيـــسا كبيرا شبه فارغ، و تمسك بالأخرى عكازا تتكئ عليه . أخرجـــت من الكيس منديلا وبصقت فيه ثم قذفته في الكيس.

لم يكن المقعد الوحيد الشاغر في الصالة بعيدا عنها، ولكنها كانت تكابد كي تصل إليه، وما أن حاذته حتى استدارت وتهالكت عليه وهي تجفف العرق المتصبب بغزارة على وجهها .

ابتسمت لها موظفة الصرافة التي اعتادت أن تراها مطلع كل شهر، ثم نهضت من وراء مكتبها وانحنت لتصافحها بـــود ظـــاهر قائلة:

- سلامتك يا خالة. تبدين مريضة ! ؟ .

تشبثت العجوز بيد الموظفة، وعندما همت الموظفة بسحب يدها من بين أصابع العجوز ضغطت عليها بقوة فاستسلمت الموظفة لها برفق .

قالت العجوز بصوت متهدج:

- يا ابنتي، الربو أتعبني وهموم الدنيا والدواء الذي ارتفع ثمنه.

- لا بأس، هوّني عليك. إن الإنسان مبتلى في هذه الدنيا، ولا أحد منّا بمنجاة من الهموم .

سحبت الموظفة أصابعها من بين كفي العجوز بلباقة ثم عادت إلى مكتبها لتبحث عن بيانات العجوز، فيما تسمّرت عينا العجوز على شفتي الموظفة، منتظرة سماع العبارة المعتادة المحببة إلى نفسها:

- انتظري دقائق يا خالة ريثما أسحب نقودك .

مضى وقت طويل والموظفة ما تزال تضرب بأصابعها على أزرار الحاسوب وقد اكفهر وجهها. بدأ القلق يتآكل العجوز التي اتكأت بذقنها على مقبض العكاز محاولة حبس الصفير الذي يتصاعد من صدرها، ويلفت إليها المزيد من الأنظار. فجأة تركت

الموظفة جهازها وأطرقت فتململت العجوز في مقعـــدها متـــسائلة بوجل:

- خيرا يا ابنتي، ما بك ؟

- والله لا أعرف ماذا أقول لك ! .

ازدادت حدة صوت صفير صدرها حين قالت :

- يا ابنتي تكلمي.

- لقد أوقفوا الإعانة الشهرية عنك يا خالة .

وجمت العجوز وبدت ساكنة في مقعدها كتمثال حجري.

أردفت الموظفة:

- قالوا إن شروط منح الإعانة لاتنطبق عليك . إنهم يعينون الأرامل والمطلقات ومن ليس لهن وليّ ينفق علـــيهن مثـــل الأب أو الزوج أو الأبناء. يقول تقريرهم : "أن لديك ثلاثة أبنـــاء ذكور". بارك الله لك فيهم .

أشارت الموظفة بسبابتها إلى شاشة الحاسوب قائلة:

- ولدك البكر اسمه أحمد حسن، أليس كذلك؟.

- .....

بدت علامات الدهشة على وجه الموظفة حـــين علقـــت قائلة:

- أحمد حسن، كانت زوجته جارة لأختي. ألا يمتلك عمارة سكنية فاخرة في وسط البلدة ؟! .

خيّم الصمت عليهما في ما حاولت الموظفة أن تتشاغل بجهازها لتخفي إحراجها. همّت العجوز بالنهوض من مقعدها لتنصرف ولكنها تراجعت، وقالت بنبرة خنقتها العبرة :

- والله يا ابنتي لا أحد من أبنائي الثلاثة ينفق عليّ. شغلتهم الدنيا. شغلنا الله بطاعته.

نهضت العجوز من مقعدها وخطت خطوتين ثم التفتت إلى الموظفة وتساءلت وعيناها مترعتان بالرجاء :

- هل قرارهم هذا نهائيّ ؟، أقصد .... أقصد حتى لو شرحت لهم ظروفي ؟ .

- لا أعلم يا خالة .

فتحت الموظفة حقيبتها وأخرجت منها نقودا لفّتها بمنديل ودسّتها في يد العجوز خفية ، فأعادت العجوز النقود إليها قائلة:

- لا لا، الله يوسّعها عليك يا ابنتي! .

سارت ببطء صوب بوابة البنك تجر قدميها الثقيلتين. تسير خطوات قليلة ثم تتوقف لالتقاط أنفاسها المتحشرجة وتسعل سعالا حادا ينتهي بصفير . تلهج بكلمة:

- يا الله ... يا الله .

انتظـــار

يجثمون على صدري كالجبال، يحيطـــون بي كالأســـلاك الشائكة، أرى وجوههم قبيحة كوجوه الذباب. يجلـــسون علـــى أرائك الحجرة ذات الجدران الرمادية. يحتسون عصير الليمون البارد ويثرثرون حول حرارة الصيف، والمقهى الذي انتقـــل إلى شـــارع آخر، والمسلسل العربي ذي النهاية المفتوحة.

أمي تتذمر من كرش أبي الكبيرة وأبي يلح علـــى أمـــي أن تقص شعرها مثل قَصة شعر مطربته المفضلة. احتدم النقاش بينهما وسرعان ما صمتا وشرعا يتابعان الحلقة الأولى من المسلسل الجديد.

جهاز التكييف المقيت مازال يضخ في الحجـــرة أمواجـــا متلاحقة من الهواء البارد الذي ينخر عظامي. أرى وجه أمي مـــن بين فخذيّ المقوستين الناتئتي العظم ، ترمقني بنظرة سريعة وهـــي تنهض قائلة:

- سأحضر لحافا .

بدأ مغص حاد يعتصر بطني تلاه خروج براز سائل حار مني. كم أكره رائحة برازي ونظراتهم التي يرشقونني بها حين يشمون رائحته المنتنة! .

تبا لهذه البرودة!، المغص يشتد وجسدي يرتجف. أطلقتُ صوتي الذي يشبه خوار البقر فالتفتوا إليّ ثم عادوا إلى مشاهدة المسلسل.

دخلت أمي الحجرة تحمل لحافا دثرت به أخي الصغير النائم بجانبها.. أطلقتُ صيحات أخرى حين شممت رائحة البراز التي بدأت تنتشر في البيت، عندئذ

صوّب أبي نحوي عينيه الطافحتين بالاشمئزاز، ثم أغلق أنفه بإصبعيه وهو يومئ برأسه إلى أمي. قالت أمي وهي تتزلق في أريكتها وتستلقي على ظهرها باسترخاء:

- أنا متعبة الآن. بعد قليل سأنظفه .

حدّقتُ في اللوحة المعلّقة على الجدار منذ سنين طريق ترابي طويل يلوح في نهايته مرج مشمس. تظلل جانبي الطريق أشجار كثيفة داكنة الاخضرار.

كثيرا ما كنت أشرد بذهني وأختبئ بين تلك الأشجار، أو أركض في الطريق ولكن قدميّ تكلان دون أن أصل إلى نهايته. تأملتُ في زجاج اللوحة انعكاس صورة جسدي الذي اشتد نحولا واصفرارا في الأشهر الأخيرة .

أختي التي تجلس بجوار النافذة تطلي أظافرها بطلاء أحمر، وتمط شفتيها بامتعاض قائلة:

- يا خسارة!،لن نسافر إلى ماليزيا هذا الصيف.

أثارت عبارتها حنقهم، فتبادلوا عبارات مقتضبة ثم طفقوا يتحسرون على طبيعة ماليزيا الخلابة وأسواقها الرخيصة. بغتة صمتوا جميعا ونظروا إليّ بأعين زجاجية معتمة، فاختبأت بين أشجار الطريق. أغمضت عينيّ وأصغيتُ إلى وجيب قلبي ولهاثي وعندما فتحتهما رأيت فضاء الحجرة مغبرا أصفرا تتساقط فيه ذكريات كأوراق الشجر الميتة: وجه أبي وهو يضاحكني ، ورائحة صدره حين كنت أنام في فراشه عندما تسافر أمي،والحكاية التي اعتادت أمي أن ترويها لي قبل النوم.. حكاية الولد المعاق الذي شُفي عندما أصبح شابا.

- آه ... البرودة تشتد ! لو أنهم يغلقون جهاز التكييف برهة ! .

شرع أبي يقلّب أوراق التقويم ثم تكلّم بصوت شديد الخفوت:

- الصبر جميل. ربما نتمكن من السفر بعد شهر.

أطرق أبي قليلا ثم أردف وهو ينظر إلى السماء من فرجة النافذة ، و يشير بسبابته إلى أعلى:
- إذا تحققَ ما توقّعه الطبيب .

استيقظ أخي من نومه ثم نظر إليّ بخبث وابتسامة صفراء تلوح على فمه. لابد أنه اشتاق إلى هوايته المحببة إليه التي اعتاد أن يمارسها في غفلة من والدي غرسَ أظافره بقوة في قدمي بينما يراقبه والداي صامتين، وعندما ضج البيت بصياحي نهراه بفتور .

انتهت الحلقة الأولى من المسلسل فنهضوا وهم يتثاءبون. حين حملتني أمي لتأخذني إلى الحمام حدقتُ مليّا في اللوحة المعلقة على الجدار، لكنني لم أر فيها إلا انعكاس صورة التقويم القابع على الطاولة المقابلة للوحة .

بائع الشراريب

المدينة : المدينة المنورة.

المكان : (سوق قباء) السوق الرئيسي في المدينة.

الزمان : الساعة الخامسة في عصر يوم من أيام الصيف.

النساء يتجولن بين الدكاكين التي عُرضت بضائعها خلف الواجهات الزجاجية بطريقة جذابة جميلة. تمتزج في الهواء رائحة الغبار برائحة البترين ورائحة البخور المنبعثة من محلات العطارة. بدأ مسعود مشواره اليومي ، يحشر جسمه النحيل الذي تلفه ملابس بالية بين المارة مناديا بصوت مبحوح:

- شرا ريب .. شراريب .

التفتت إليه امرأة وجعلت تقلّب بضاعته المرصوصة في كرتون مثبت من جانبيه بحبل معلق حول رقبته، ولكنها سرعان ما أشاحت بوجهها عنه وبدأت تتحدث بهاتفها. اقترب منها مسعود ورفع صوته قليلا:

- شراريب ...شراريب ... الشراب بريال.

أومأت إليه المرأة بيدها ليصمت ولكنه لم يبال بإشارتها. ابتعدت عنه فلحق بها. أسرعت الخطى فركض وراءها مناديا:

- خذي شرابين بريال.

لم تلتفت إليه فقال بإلحاح:

- خذي ثلاثة شراريب بريال .

نظرت إليه بعينين يملؤهما الغضب قائلة:

- يا غبي، أغرب عن وجهي.لا أريد شراريب ، ألا تسمعني؟!.

بلع غصته وابتعد عنها ثم توقّف قرب طفلين يرتديان ثياب مرتّبة جميلة وأحذية ذات أضواء متحركة. كان أحد الطفلين يتناول الآيسكريم، بينما يشد الآخر عباءة أمه المنهمكة في اختيار بعض الإكسسوارات ويناديها ملحا:

- أمي، أريد هذه الدراجة.

اقترب مسعود من الدراجة المعروضة في محل الألعاب وتأملها جيدا قائلا:

- كم هي جميلة !.

سألت الأم البائع عن ثمن الدراجة ثم أخرجت من حقيبتها ورقة نقدية من فئة الخمسمائة ريال وأعطتها إياه.

الحرارة شديدة و العرق يتصبب من جبينه غزيرا. اليـــوم لا يفارق خياله طيف أمه المريضة. حين همّ بأن يخرج مـــن البيـــت كانت تسعل سعالا حادا، و نادته بصوت خفيض:

– مسعود، نفذ دوائي يجب أن أشتريه اليـــوم ...حـــاول أن ..لم تكمل الكلام ولكنه أكمله في نفسه:

– حاول أن تجمع ثمن الدواء .

تسارعت دقات قلبه،وسار بخطى حثيثة. رفع صوته أكثـــر من المعتاد مرددا:

– شراريب ... شراريب .... شراريب .

استوقفته عجوز تنم سحنتها عن الطيبة والحنو وربتت على ظهره فتعجب من صنيعها، ثم سألته :

– يا حبيبي، بكم تبيع كل هذه الشراريب؟.

حدق فيها مسعود مذهولا ثم تساءل بصوت متقطع :

– كل الشراريب ؟ .

أومأت برأسها أن نعم ، فأمسك الكرتون بكلتي يديه ورفعه إليها قائلاً:

– بثلاثين ريال.

وضعت العجوز ورقة نقدية من فئة المئة ريال فوق الشراريب، عندئذ أحس مسعود بالقلق فقال وهو يخرج ريالات قليلة من جيبه:

- ولكن ليس لدي بقية المئة ريال ، ألا تنتظرينني حتى ...

قاطعته ضاحكة:

- يابنيّ، هذه المئة ريال كلها لك .

انصرفت العجوز وهي تلوح بيدها قائلة:

- لا أريد الشراريب أيضا ! .

أخذ يحدق بالنقود ويردد:

- هل هذا حلم ! ؟؟.. مئة ريال لي! .. الحمد لله .. الحمد لله.

غمرته نشوة عارمة فشرع يقفز تارة ويركض تارة، وهو يلوح بالنقود ويصيح:

- معي مئة ريال ...معي مئة ريال .

اقترب منه صديقه الذي يبيع قوارير الماء، وهمس في أذنه:

- اهرب بسرعة، سيارة البلدية قريبة منا.

ارتبك مسعود وضم كرتون الشراريب إلى صدره فسقط بعضها على الأرض. هم بأن يلتقطها ولكن اخترق سمعه صوت

وقع أقدام تركض صوبه. فأطلق لساقيه العنان، قلبه يخفق بشدة، أنفاسه تتسارع، يختلط في ذهنه صوت لهاثه بصوت سعال أمه. لا يكاد يدرك مايراه ولا يعرف إلى أين يفر.تحوّل السوق الذي حفظ كل شبر فيه إلى متاهة، تحوّل إلى ثعبان طويل يتلوى أمامه.هل ثمة من يلاحقه حقا ؟. هل فقد من يلاحقه أثره ؟ . لم يعد يدرك شيئا.

فجأة خرجت من إحدى الحارات الضيقة سيارة مسرعة اصطدمت به بقوة فطار جسده الصغير في الهواء كدمية وسقط على الرصيف. احتشد المارة وأصحاب الدكاكين حوله و تعالى صراخهم:

- يا لطيف يا الله ، الطف به . إنا لله وإنا إليه راجعون ! . الولد يترف بشدة .اطلبوا الإسعاف بسرعة .يبدو أنه مات ! .

كان يسمع جلبة وصياحا ولغطا، ولكن تلك الأصوات كانت خافتة كأنها آتية من أعماق سحيقة. تداخلت أمام عينيه الرؤى : مآذن الحرم الشامخة، والشمس التي توشك على الرحيل، ووجه أمه الشاحب. بهتت الصور شيئا فشيئا إلى أن تلاشت تماما.

الكاتبة في سطور

- مـــريم خليـــل الـــضاني: فلسطينية الجنسية.
- ولـدت في المدينـة المنـــورة عام ١٣٨٦هـ.
- حاصلة على بكـالوريوس اللغة الإنجليزية وآدابها مـن كلية التربية في المدينة المنورة عام ١٤٠٨هـ وتعمل في مجال تدريس اللغة الإنجليزية منذ ذلك الحين.
- لهـــا مـــشاركات قصـــصية ومقالات في بعض الصحف والمجـــــلات المنتـــــديات الإلكترونية.